خيانة

قصة عبد العزيز مصطفى

كان ارعاجي هذا الصباح ، لأني سأزور زوجة أخي . أمي تلح علي في ذلك ، ولكن ارعاجي لم يلبث أن تلاشى، عندما ارتسم في ذهني مرضها . وحاجتها الى زيارات . واذا كنت قد صفت بالحاح أمي فلأني أضمر كراهية عاصفة لزوجة أخي ، تنوء بها نفسي الى حد اني أتمنى أحيانا الخلاص من كراهيتي ، فانه شعور بشقيني ، الأمر غريب في الظاهر ولكن لا غرابة اذا كانت زوجة أخي في العشرين ، ولا زلت أدعى « موموزيل ليلى » رغم الخامسة والعشرين التي أتممتها أمس . كان علي أن أحل مشكلتي بيدي ، فلقد أخفقت ، كما أخفقت أمي في أمر زواجي المنشود . أما « حسن» فهو يدين أكثر من اللازم ، و « طاهر » مجرب في دنيا النساء الى المدى الذي أفسده ، فلم يعد من الحكمة أن يؤمن جانبه . أما « عبد الموجود » فلا أعرف له عيبا الا قسوة أحلامي التي تفرض على أن ازف الى رجل مثقف يحمل درجة جامعية ، وفرق كبير بين « عبد الموجود » الثري الريفي وبين رجل أحلامي .

ولم أجد بدا من الذهاب. ولم يستطع رونق الصباح وبهاؤه أن يبهجني فقد كانت آثار مشكلتي « كصمام الأمان » ولكن ضد السرور والنشوة .. ولم تمض ساعة واحدة حتى كان القيظ يبسط أجنحته الذهبية الحمراء على الطريق اللامع حيث يقيم أخي .

بينما كنت أصعد الى الطابق الثالث ، اذا بشاب يهبط الدرج ، ويثبت نظره نحوي لحظة ، ثم يشملني بنظرات مستوعبة سريعة من أعلا الى أسفل . ويمضي متباطئا كأنه يفتعل الهدوء والرزانة ، لم يثر اهتمامي الا نظراته المستوعبة وسوالفه البيضاء . ودلفت الى زوجة أخي ، وصورة الشاب الوقور تتلاشى في نفسي كما يتلاشى الصدى . كم هي جميلة زوجة أخي ، داخلني احساس بأنوثتي عندما اقبلت تحتوي باسمة تصافحني لعلها شعرت من مرضها احساس فيه حقد وألم ورغبة في كسر القيود من حولي . وباللاضطراب الشديد الذي تسلل الى أعماقي عندما فوجئت بالشاب الوقور حائلا أمامي عند العودة. نفس النظرات ، وان شابها ابتسام يعدي حتى جعلني ابتسم ابتسامة واهنة بالرغم مني . انه يختلف عن الكثيرين الذين يتطلعون الي في الطريق. أو هكذا أحببت أن أوهم نفسي ، مجرد ميل يجعلني أعتقد أنه مختلف وجدير أن التفت اليه وأفكر فيه . ولكن باللوهم وانطلاق الخيال ، وكعادتي أجهدت نفسي في التأدي . « البيض يونج » يستأثر باهتمامي ، كأنني اتشبث به حتى أشغل نفسي عن نفسي .

... حتى أنفق حيويتي في اللعبة مجاهدة مشاعري ، ثائرة على احساسي بأنوثتي . هاربة من شعور الوحدة والانفراد بالرغم من كل الناس حولي. ولماذا لا أصارح نفسي ، البت واحدة

من الفتيات المنتظرات حتى أصبح كزوجة أخي .. وانى لجميلة .فرصتي أكثر صمانا وأوفر .

تكرر اللقاء بينه وبيني ، حتى أدركت انه يقيم في الطابق الأول من بيت أخي ومع ان الآمال تسرف في التلويح لي ، الا أني لازلت ثائرة من أجل أنوثتي ، ولذلك اندفع في النادي الرياضي ،حتى الهث في اللعب ، ويبلل العرق جبيني وجسمي كله .

لعنة الله على الخجل ، فلا زلت أصر على تجاهله وافتعال التكبر والعناد . وماذا أفعل ؟ لا أستطيع مبادلته ابتسامته ، والكلمات التي يهمس بها عندما يراني على السلم صاعدة أو هابطة حتى يوم أن واجهني وقال : صباح الخير .. لحظة واحدة .. ؟

ورغم بساطته فقد أدركت اضطرابه ، وشجعتني هذه المحاولة الجريئة على أن أغامر وأحادثه . ربما بدافع الفضول . كما أحب أن أوهم نفسي وعلى التأكيد شعور يشقيني ، الأمر غريب في الظاهر، بدافع التفكير في مستقبلي .

ابتسمت ، ولكني ندمت على تسرعي فقلت له حادة وأعصابي تتماسك :

ـ صباح الخير .

ـ سؤال واحد .. هل أنت طالبه ؟

ـ نعم .

ـ مدموازيل طبعا ؟

وابتسمت في سذاجة وصعدت الدرج، يغمرني السرور . وعند عودتي قررت أن أحادثه وليحدث ما يحدث ولكني لم أره منتظرا كعادتي .

وبدا لي أن انقطع عن زيارة زوجة أخي شهرا أو شهرين . لا بد أن أقسو على نفسي ، ولا بأس أن تشغلني الأحلام ، وترهقني لعبة البينج بونج حتى أعود اليه لأحادثه هذه المرة .

وكان ما قدرت ، لم أرفض دعوته فصحبته الى الحدائق والملاهي . وفي كل خطوة أخطوها يتراءى لي وجه أبي يسطر شررا وأمي عاصبة في صمت ثم تتراح هذه الصورة الغاضبة فتتراءى لي أيام مشرقة قادمة ، فأحس انه يلتصق بي عامدا ، ويترصد صوتي وكلامي ، ولون شعري الأسود فاستجيب للسرور العميق ، وتهجس في نفسي نزعات حادة أن امنحه بعض ما يريد أو أكثر .. لكن سرعان ما أتمالك نفسي .

نضب معين الحديث بينه وبيني ، بعد أن تهالكنا عليه ، وقطعنا اشواط الثرثرة بينما شأن كل علاقة جديدة طارئة ؛ بعد تعطش ، وانتظار . وبدا لي انني قد انطويت تحت كنف العاطفة الناشئة بيني وبينه . وكانما كان الملل في انتظارنا ليدفعنا من جديد ، فاتفقنا على الزواج ،في غمرة الحماس بينما كانت يداه تمس أجزاء جسمي في رفق وعصبية ونشوة .

صار الليل والنهار ظلمة ونورا لامعنى لهما الا كعلامات على الطريق الذي نمضي فيه ، الظلمة تحيط بجونا العاطفي الحار وحمساته الدافئة . والضوء بسمة ومرح تشعله نحن بثرثرتنا ولمس أيدينا ولقاء أنفاسنا .

وكشأن المحبين أصبحت أيامنا كلها أعيادا ترتفع فيها الزينة وترفرف عليها

الاعلام المرحرفة المتعددة الألوان · وهكذا تتخيل انفسنا ، في عيد دائم متجدد · وكشأن الحياة وعادتهـــا كان لا بد من الدموع خلال البسمات والضـحكات · ذات يوم ، كنت أجلس الى أمي نثرثر في هدوء كأننا تخفي أشجان الذكريات · لقد اصبح فتاي الوقور ذكرى ، بعـد أن أحاطه أبي بمودة وحنان وهو القاسي العنيد · وبعد ان اطمأنت اليه أمي وكانت بسمتها تتسع فيشرق وجههـــا بالصفاء والصدق كلما رأته على البـاب يستأذن مستحيبا في الدخول ·

أصبح فتاي ذكرى منذ أن انقطعت أخباره وزياراته ، ولم تعد قلوبنا تخفق لرؤيته كأنها ترحب بالرفاق المنتظر ·

وسارت ظلمة الليل في جهامة ليسطع ضوء الشمس من جديد كالسيف يبدد الظلمة ، ويثير الصراحة والوضـــوح ، ويفسح المجال مرة أخرى للأمل في حياة جديدة · وجاءت الحياة الجديدة ، في هدوء ، وفتحت عيني ذات يوم لأجدني زوجة ، تزوجني رجل لم أعرفه من قبل وأصبح لي بيت هادئ ، يقطع هـدوءه صراخ طفلي الرضيع ·

ان زوجي يستأثر باهتمامي ، وصورة الشاب الوقور · تضعف وتتزوى ثم تعود · لكن لقد هانت تلك الصـــلة السحيقة التي حشدت آمالي وقضيت عليها بضربة واحدة ، هانت ولم تعد تتسلل الى قلبي · أو هكذا أحب أن أعتقـــد واتخيل قصائي · وفجأة ذات يوم كنت أحمل طفلي الرضيع ، عائدة الى منزلي ·· عندما رأيته ·· وجها لوجه ·· وكان ضعفي وضعف صورته قد تحولا الى قوة عاصفة ، هزتني ، ولكني تمالكت · مد يده فصافحته ، وابتسمت في هـدوء وجاهدت كي أبدو غير مبالية به ساخرة منه ، زاهدة فيه·وقلت له في بساطة : لماذا لا تزورنا ؟ · أمي تسأل عنك ·· وكذلك أبي ·

وافترقنا · وشعرت انني أعود الى الأمس ، وان الماضي يجثم على صـــدري ليجذبني اليه · وفي تراحم الذكريات برع في طلال الحزن شعاع باسم ، كان ذلك لأني مسرورة هذا السرور الطارىء، الذي تفترصـــــه ساعة أن يطغى الألم وتهجم موجاته على الشاطىء المستسلم بلا حيلة · نفترصه ونتعلق به كما نتعلق بطوق الحياة ·

مسرورة لأني · عندما رأيته فجأة ـ نجحت في اخفاء مشاعري كأن الأمر كله لا يعنيني ·